وكان صباح... وكان مساء

أمالي الذكريات

نجوى قهوار فرح

تحرير وإعداد

يوسف عبد العزيز

ليما شفيق نبيل

٢٠١٤

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كـلـمـا أنـبـت الـزمـان قـنـاة

رَكّـبَ المـرء في الـقـنـاة سـنـانـا

وكـأنـا لم يـرضَ فـيـنـا بـريـب

الـدهـر، حـتـى أعـانـه مـن أعـانـا

أسمعه وهو يقول الله..... الله... يا متنبي.

وغنيّ عن القول، أني بعد أن كبرت أجد في هذين البيتين إيجازاً بليغاً للإنسان في حالته الطبيعية، مندفعاً وراء غرائزه، يركّب القنابل النووية في تقنيته الحديثة، ويفتك بأخيه الإنسان، رحم الله والدي.

والدتي أدما مرمورة قعوار

رحلة النّفي إلى أورفا (١)

كانت أمي الجنّة في حياتي. كنتُ أحتمي بعالمها، وأريد الانتماء إليه لِما فيه من الجمال والعمق والسلام. وعالمها كان مختلفاً، فإن كان عالم والدي ذا خلفية شرقية تعيش أجواء الدولة العثمانية، وما تحمله من آثار الإقطاع، فحياة أمي على النقيض من هذا، فعالمها هو عالم مغاير. عاشت أمي يتيمة الأب، إذ توفي والدها وعمرها شهور لا أذكرها، أهي ثلاثة أو أقلّ أو أكثر! وما تعرفه أمي عن والدها ما كانت تسمعه من والدتها وأخويها وأخواتها، وتقول لي إنّ العائلة هي من بيت الحدّاد من الناصرة، أما لماذا لقّب جدي بمرمورة؟ فالسبب مجهول، إلا من أقاويل أن جدة والدها ميخائيل مرمورة من بيت المالطي، وأنه كان يقال لهم في عروقكم دم يوناني، ورأيٌ آخر أن أحد

(١) أورفا عرفت في التاريخ باسم أديسا، وفيها نشأت الكنيسة السريانية، وقدّيسها المشهور "أفرام" الذي كتب عدة كتب وترانيم، ويجدر بالذكر أن مؤسّسها هو الملك أبجر الثامن ملك قبائل العرب "الأباجرة"، الذين تنصّروا حوالي سنة ٢٠٠ ب م. وأصبحت أديسا أول مركز لنشر المسيحية في الشرق، وفيها ترجمت الأسفار المقدّسة إلى السريانية. هاجمها الرومان ودمروها سنة ٤٠٠ ب م.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الجدود كان من عائلة مرمورة وهي عائلة سورية. وكانت أمي تقول: أتمنّى لو بقي الاسم (حداد) وليس اسم "مرمورة"، وهو اسم غريب غير مألوف، كما أنه كاد يقطع العلاقة مع الأقرباء الحقيقيين- عائلة حداد- وهي عائلة كبيرة ومعروفة في الناصرة.

وأمي تحدّثني أن أمّها كانت تقول لها، إنّ أباها ميخائيل مرمورة كان رجلاً كريماً محبّاً للضيوف. واسم جدتي لأمي (وردة)، من عائلة السروجي وهي عائلة كاثوليكية معروفة، وأخوها حبيب السروجي كان مؤرّخاً ووجيهاً له ولدان وثلاث بنات: الأكبر يسمى قيصر، والثاني يسمى موسى. ولبّى قيصر الدعوة للكهنوت، وكان كاهناً محبوباً ذكياً ونشيطاً. وتذكر أمي أنه كان جميل الطلعة، مهيب الجانب، وموضع اعتزاز العائلة وفخرها، اختير ليصبح كاهناً في شفا عمرو، وحدث تصادم بين المغاربة الذين سكنوا شفا عمرو والنصارى. وانطلق الرصاص في أحراج الزيتون، فأصاب قيصر مقتلاً. وكان حادثاً مروّعاً. تتحدث أمي عن حزن العائلة وعويلها المستمر، وحسرتها على الكاهن الذي لو كُتِب له العمر لكان رجل عطاء للكنيسة والمجتمع، لمواهبه الكثيرة، ومبعث فرح وفخر لوالديه.

أمّا كريمات حبيب السروجي فقد تزوجت اثنتان منهما، وبقيت ابنته نزهة السروجي عزباء، تقوم على خدمة والدها الذي أصيب بالفالج، وغدا قعيداً في فراشه، معتمداً على ابنته الوفية التي تعتني به. وأذكر أنّ أمي كانت تزورهما (أي خالها وابنته نزهة)، وقد اصطحبتني مرة، فشعرت بوحشة شديدة، وكنت صغيرة ربما في الخامسة من العمر، وأذكر الرجل الطريح بالفراش، والغرفة مليئة برفوف عليها كتب ومجلات، ورائحة عتيقة تنبعث من الغرفة لعلها من الأوراق والمجلات، أما نزهة فكانت أمي تزورها بعد وفاة والدها. وبقي هذا الجو الغريب يؤثر عليّ، فالبيت واسع وحديقته في وسطه، ولكنّه منعزل لما حوله من سور يوحي بالوحدة. وقد كتبت عن ابنة خال أمّي نزهة السروجي، بتفصيل أكثر في مقدمتي للحكايات الشعبية التي أخذتها عنها، كما وصفت البيت ومحتوياته.

وأعود إلى حديث أمّي، وكأنّه عهدٌ جميل، وإن لم أعرفه، وهي تروي لي عالمها قبل زواجها. ولعل أسلوبها الجميل هو ما حبّبه إليّ، مع أن هذه الحياة لم تكن مريحة أو مرفّهة، أو بعيدة عن المآسي. ولكنّ لعلّ انتماءها لأمي هو ما حبّبها إلي، فأنا أريد أن أشترك فيها، فهي الفردوس الذي أطمئن إليه.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

واسم جدّي لأمي ميخائيل مرمورة، وحسب روايتها أنه شقّ التّوأم، وله أخ اسمه أسعد لم يتزوج، وكما سبق وذكرت أن حالته المادية كانت لا بأس بها، في وقت بلغ الفقر أشده في فلسطين. وكان على نصيب من العلم، في زمن عمّ فيه الجهل، وندر العلم، فكان يعرف حساب الدوبيا. ولذلك كان يحتاجه دوماً ذوو الأرزاق والأراضي، ليراجع حساباتهم، ومن بينهم طنوس قعوار، كما كان يُضمّن الأراضي للفلاحة، وكانت في بيتهم "عقدة" تُسمّى الحاصل يخزن فيها القمح وغيره من الحبوب.

وأُلِحُّ على أمي لتصف لي مسكنهم ويومياتهم، فتصف البيت الأرضي بساحته والعقد الكبير والدالية التي يجلسون في ظلها في الصيف والربيع، يقومون ببعض أعمال البيت والساحة وتُسمّى المحوّطة، خاصة ما يتعلق بالمؤونة لفصل الشتاء، فالمواسم يُعتنى بعطاءاتها، ويتجاوب الناس خاصة في ذلك العهد معها، فالملوخية تُقطَف وتجفّف، والقمح والبرغل يُسلَقان، والبندورة تُجفّف، كما وتُصنع المربيات في مواسمها من العنب والسفرجل والمشمش والتفاح، ويُصفّى اللبن في كيس من الخام الكبير، ويحرّك مع الملح كل يومين أو ثلاثة، والجبنة قد تُصنَع في البيت، أو يؤتى بها جاهزةً لتسلَق وتُكبَس، وتوضع في الأواني الزجاجية، ناهيك عن الاهتمام بالفِراش، أو إعداد الطعام.

وتقول أمي: وكان في الساحة شجرة رمان وشجرة ليمون، وعلى جوانبها ثلاث غرف، وقبالة العقد الكبير كان حاصل خزن الحبوب الذي أشرت إليه سابقاً. والعقد كبير بحيث يمكن بناء بيت على سقفه، والبيت محاذٍ لمدرسة الطائفة المعروفة باسم مدرسة "الجرينة"، وفي الطابق العلوي من المدرسة كانت تعيش عائلة ألمانية من المبشِّرين، وكان الألمان أول من أسّس العمل التبشيري في الناصرة، وسيجيء تفصيل لاحق عن هذا الموضع. وتقول أمي، وكانت نافذة بيتهم تطل على بيتنا والحديث لأمي، مما وثق الصداقة بين العائلتين، وسبّب في ذهاب أختي الكبرى نظيرة مع ابنة المبشر جولمار إلى بيروت للالتحاق بمدرسة ألمانية. (وكان ذلك القسم من ألمانيا ما يزال يدعى بروسيا)، حيث تسنّى لها أن تدرس من اللغات الألمانية، والفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى لغتها الأم العربية. وممّا يجب ذكره أن هذه العائلة أي عائلة "جولمار" بنت بيتها بأيديها.

وتُكمِل أمّي حديثها: أما سفر أختي إلى بيروت فلا أعيه تماماً، لأني كنت صغيرة السن، وأكثر ما أعيه سفر أخويّ "إلياس" و"عزيز"، وأختيّ "متيل" و"ليديا" إلى

مادة محمية بموجب حقوق النشر

القدس، حيث التحق أخواي بمدرسة "صهيون" وأختي متيل بمدرسة داخلية في بيت لحم. وكانت هذه الرحلة إلى القدس تستغرق ثلاثة أيام ركوباً على الخيل. كان أخوتي يذهبون في شهر تشرين الأول، ويعودون في شهر تموز.

ويعود بي الحديث إلى طفولة أمي، فبعد وفاة جدي ميخائيل (جدّي من طرف أمّي)، أدخلت جدتي (وردة) بناتها مدرسة "الأورفنج" أي الميتم، وهو الاسم الذي كان معروفاً في الناصرة لهذا المعهد، وكان من جيرانها عائلة المعلم أمين فارس، والذي كان قد دعاه طنوس قعوار من لبنان ليشرف على تعليم أبنائه، وليفتح مدرسة لأهالي المدينة.

وكانت إحدى المبشرات واسمها "مس مولر" تقيم في بيتها اجتماعات للصلاة، وجدتي تحضر هذه الاجتماعات، مع أنها لم تغير مذهبها الكاثوليكي، وبقيت تواظب على حضور القُدّاس الكاثوليكي والمناولة لحين انتقالها من الناصرة.

ولدى ذكر هذا الميتم (الأورفنج) فلا بد من لمحة موجزة، فهو مَعلم من معالم الناصرة، وقد قام على بنائه والإنفاق على هذا البناء الدولة البروسية بالاشتراك مع الكنيسة الأنجليكانية.

ويقع هذا المبنى على أحد تلال الناصرة في الجهة الشمالية الغربية منها، وتصعد إليه بدرج عريض بطوله الذي يبلغ عشرة أمتار، ودرجاته التي تبلغ مائة وثماني درجات.

فتح الميتم أبوابه لمئات من الفتيات اليتيمات، وقد وجد الأهالي فيه ملجأ حامياً لهم من الفقر السائد في تلك الفترة، وسبيلاً لتعليم بناتهم في وقت ندر فيه التعليم. كادت مدارس البنات أن تكون معدومة، وفي الوقت نفسه كانت قوانين مدرسة الميتم جائرة ومجحفة بحق هؤلاء الصغيرات، بل كانت المبشّرات والمعلمات الإنجليزيات نماذج للاستعمار، وعلى سبيل المثال كان الطعام لا يشبع جوع هؤلاء الفتيات، وأكثره من الخبز مع حبات من الزيتون. وحدّثتني والدتي أن العشاء كان في أيام نضوج الرمان، حبات من الرمان الحامض، ممّا أغاظ جدتي فصعدت إلى هذه المدرسة، وقالت للمعلمة المسؤولة: "أفهم أن العشاء هو حبات رمان، ولكن لماذا يجب أن يكون حامضاً"؟ وإذا أخلَّت إحدى الفتيات بأيّ من قوانين المدرسة فالعقاب شديد.

وتروي أمي الحادثة التالية: كان على صف من صفوف الفتيات الأكبر سناً، أن يختار عدداً منهن لعجن الطحين وخبزه في منتصف الليل، وغامرت إحدى الفتيات

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صورة لجدة المؤلّفة وردة سروجي مرمورة، مع اثنين من أبنائها

مادة محمية بموجب حقوق النشر

في كتابها حكايات الجدات استعملت الكاتبة نجوى قعوار فرح اسماً مستعارا (وردة) للدلالة على نزهة حبيب سروجي كما يلي:

<u>الرّاويةُ وردة وعوالِمها الأسطوريّة :</u>

أمّا مَن سأسمّيها (وردة) فكانت من الحي الغربي في الناصرة، تنتمي لطائفة الروم الكاثوليك، تربطني بها قرابةٌ من جهة أمي، فهي ابنة خالها، وكثيراً ما ذهبتُ مع أمي لزيارتها في بيتها، حيث كانت تسكن وحيدة، بعد وفاة والدها، في دار العائلة، وهي دار كبيرة قديمة.

أذكر أني كنت أذهب إلى بيتها، بمشاعر متمازجة. فقد كان للبيت رهبة في قلبي منذ طفولتي، فهو مؤلف من عَقْدات كثيرة، تحيط بحديقة في الوسط، يُخيم عليها جوٌّ كئيب وخاصة بعد ظهر يوم الأحد، وإحدى هذه العَقْدات كانت من الكِبَرَ، بحيث يمكنُ بناء بيت على سطحها، وإنْ أردتَ، فدار واسعة. وكانت جدران البيت مرتفعة جداً ملأَتْها الصور من كل الأنواع: كان هنالك صور القديسين بهالاتهم ولِحاهم، وصورُ أفراد العائلة، لكن إلى جانب هذا كانت صورُ الحسناوات التي تُزين عُلب الشوكولاته، وأغلفة علب السجائر، والمجلات، كذلك صور الملكات والقياصرة، وخاصة قيصرة روسيا.

كانت كلها معلقة في صفوف، وفي ترتيب متلاحق غريب، يخلق في نفسك شتّى المشاعر والانطباعات، خاصة إن كنت في سنٍّ دون العاشرة.

كان لوردة معارف وصديقات من كلّ أحياء المدينة وطوائفها، كما كانت راويةَ حكاياتٍ تنقلكَ في لمح البصر إلى عوالم أسطوريةٍ شبيهة ببيتها وحديقتها. لا بدَّ من الحديث عن هذه الحديقة التي تقع في وسط المنزل، وقد قسمتها إلى أحواض، ووضعت فيها الأُصص، ووزعت الأشجار والبُقول. وكان يحيط بكلّ هذا، أي الحديقة والمنزل، سورٌ عالٍ أشبه ما يكون بأسوار الأديرة. لعلّ هذا هو سبب كآبتي ووحشتي في طفولتي، لأنَّ السور كان يعزلك عن الناس والحياة والأحياء.

كانت وردة تزورنا، وتمكث معنا في بعض الأحيان، تستعينُ بها والدتي، وتطمئنُّ إليها، خاصَّةً إذا ما ألمّ بنا مرضٌ أو مُصاب.

وهي أول مَنْ روى لي حكاية «بنت السلطان»، وغيرها كحكاية «بائع النصائح>> .

كانت لهذه الحكايات أهميتها في المحيط النسائي، لِحَثِّ المرأة على الاجتهاد والتدبير، مبنية على المثل الشائع عندنا «وراء كل عظيم امرأة>> .